

منطق العلوم الاجتماعية وسؤال المنهج في الاستيمولوجيا المعاصرة:

كارل بوبر نموذجاً

The Logic Of The Social Sciences And The Question Of The Mothod On The Contemporary Epistemology – Karl Popper as an example -

تاريخ النشر: 2024/12/20

تاريخ القبول: 2024/12/15

تاريخ الإرسال: 2024/05/10

حوة غالية¹

¹ جامعة الجزائر 2 ، الجزائر. EMAIL: gghalia738@gmail.com

الملخص:

تعتبر الاستيمولوجيا البوبرية واحدة من أهم الدراسات الفلسفية التي اهتمت بمشكلة المنهج في العلوم الاجتماعية التي ظهرت كنتيجة لتطور العلوم الامبريقية وفي هذه الورقة البحثية نسعى إلى تقديم التصور البوبري حول ما يسميه بمنطق العلوم الاجتماعية والكيفية التي عولجت من خلالها قضايا المنهج و العلاقة التي تربط العلوم بعضها البعض .

وقد كان من النتائج المحورية لهذه الورقة البحثية الوصول مع القراءة البوبرية إلى تفكيك منطق العلوم الاجتماعية وتجاوز عائق المنهج العلمي الصارم الذي كان مختزلاً على العلوم الامبريقية فقط من خلال استحداث منهج القابلية للتكذيب، بالإضافة إلى فتح الآفاق لإثراء فلسفة العلوم نحو البحث في التعددية المنهجية وبلورة الوظائف. الكلمات المفتاحية: منطق العلوم الاجتماعية ، الاستيمولوجيا البوبرية ، القابلية للتكذيب ، العلوم الامبريقية.

المؤلف المرسل: حوة غالية، الإيميل: gghalia738@gmail.com

Abstract:

Popperian Epistemology is considered one of the most important philosophical studies that concerned itself with the problem of method in The Social Sciences that emerged as a result of the development of Empirical Sciences. In this research paper, we seek to present the Popperian conception of what he calls The Logic of the Social Sciences and the manner in which issues of method and the relationship that links the sciences to each other were dealt with. One of the pivotal results of this research paper was to achieve, with the Popperian reading, the dismantling of the logic of the Social Sciences and overcoming the obstacle of the strict scientific method, which was limited to the Empirical Sciences only, through the introduction of the Falsifiability Approach, in addition to opening horizons to enrich the Philosophy of Science towards researching methodological pluralism and crystallizing the functions of Terminology

Keywords: Logic Social Sciences ; Popperian Epistemology ; The Falsifiability Approach ; The Empirical Sciences

1. مقدمة:

يعتبر السؤال حول المنهج في العلوم الاجتماعية التي موضوعها الإنسان ذلك المركب بين خاصية الفردانية و الأبعاد السوسيوثقافية والتاريخية ، من ابرز القضايا الاستيمولوجية المعاصرة التي تشغل على دراسة الكيفية التي تتطور من خلالها المعرفة والأسس التي تقوم عليها مختلف المجالات العلمية ، وبطبيعة الحال ، إن الخوض في كنه الإنسان ليس أمرا حديثا ، فقد سبقنا القدماء وأفاضوا في الوصف ، ولنا في ديوجينيس الكلبي (323. 421 ق م) خير مثال عن مدى غموض الظاهرة الإنسانية ، التي انتهت عند العتبة الميثودولوجية ، وخصوصا بعد تكاثف النشاط العلمي وبلوغ البشرية مرحلة متقدمة جدا في العلوم الإمبريقية التي حدثت من مكانة الفلسفات التأملية التي اتضح أنها غير قادرة على مجازاة سمات الحضارة المعاصرة التي تتحدث باسم العلم ونتائجه ، أو



بتعبير اوغست كونت Auguste Comte (1857. 1978) المرحلة الوضعية أين انتقل الفكر البشري من مرحلة محاباة الطبيعة نحو استنطاقها والوصول إلى ما يعرف بالقانون العلمي .

وعلى هذا النحو كان لزاما على العلوم الإنسانية والاجتماعية احترام الضرورة المنهجية بشكلها الصارم حتى تحقق ما وصلت إليه باقي العلوم رغم ما تحمله من خصوصية في ظواهرها لأن الموضوع هنا يتعلق بالإنسان في أعماق ظواهر وجوده وكيونته ، هذا الأمر خلق مشاكل ابستمولوجية وميثودولوجية أمام الباحثين وبقي السؤال مطروحا : كيف ندرس هذه الظواهر ؟ هل يمكن التنظير للمجتمعات والوصول إلى القوانين بشكل يوازي العلوم الامبريقية ؟ وأطلق على هذه الفترة من تاريخ هذه العلوم باسم مشكلة أو أزمة العلوم الإنسانية والاجتماعية .

إلا أنه ومع الثورات العلمية في القرن العشرين تغير الخطاب ابستمولوجي نحو أفق مغاير تماما انعكس بدوره على طريقة النظر إلى العلم وبنيته ومن ثم إلى المنهج ، لتصبح المشكلة تتعلق بتاريخ العلوم جميعها .

وتعتبر ابستمولوجيا البوبرية واحدة من أبرز الفلسفات التي خاضت في هذه المسائل في إطار ما يسمى بالعقلانية النقدية ، وللعلوم الإنسانية والاجتماعية نصيب كبير من هذا الطرح خاصة وبشكل أساسي العلوم الاجتماعية وقد كان لها صدى كبيرا بين ما يوازيها من قراءات في فلسفة العلوم و ابستمولوجيا ، وعليه نبحت هنا في منظور كارل بوبر Karl Popper (1902-1994 م) لمشكلة تقدم العلوم ، من خلال بعض الأسئلة مثل : كيف عمل على تحليل و أبستمت مشكلة المنهج في العلوم الاجتماعية ؟ وإلى أي مدى يمكن القول أن هذه العلوم قد تخطت مرحلة التخلف أمام العلوم الامبريقية ضمن ابستمولوجيا البوبرية ؟ وما هي آفاق هذه العلوم حول البنية المفاهيمية ضمن العلاقة بين التوصيف والتفسير ؟ ما هو المقصود بمنطق العلوم الاجتماعية ؟ ثم هل يمكننا نحن الاستفادة من هذه ابستمولوجيا في عوالم تفتقر أساسا إلى التقدم العلمي ؟

2. ابستمولوجيا اليقين عند بوبر:



يقول بوبر عن أستاذه .سقراط . القرن الرابع قبل الميلاد . : " كان سيدي الذي علمني كم هو قليل ، قليل ذلك القدر الذي نعرفه و أن أي حكمة تبتغها ليست سوى إدراك يتعاضم بمرور الوقت . بما لدينا من جهل لا حدود له " (قاسم، 1986) من خلال هذه العبارات نستشف تأثر بوبر بالدرس السقراطي حول المعرفة والذي كان شعاره دوما أننا لا نعرف سوى أننا لا نعرف إشارة منه بضرورة تقييم العلاقة الجدلية بين المعرفة واللامعرفة ، متى نعرف وكيف نعرف وماهي حدود معارفنا ؟

- مثل هذه الأسئلة وغيرها تصف روح الفكر العلمي الجديد للقرن العشرين الذي تناوله الابدستيمولوجيين وفق رؤى متباينة تصب كلها في مناهضة مفهوم اليقين المطلق الذي يعتبر من ابرز مخرجات الفيزياء الكلاسيكية وتحديد الميكانيكا النيوتونية .

و قد عبر مارتن هيدغر Martin Heidegger (1889-1976 م) عن هذه الجدة بتشبيهها بكواليس المسرح حيث حتى لو بقيت مسرحيات العالم كما هي ، فان المسرحية التي تعرض بها القرن العشرين هي جديدة بموضوعاتها ومناهجها وأطروحاتها (مذبوح، 2009).

لقد اعتبر بوبر أن أهمية العلم تكمن في كونه أهم الأعمال الروحية التي عرفها الإنسان ، وعليه كان لزاما علينا تطويره وتحسينه باستمرار وهذا يتنافى تماما مع حتمية الحقيقة المطلقة واليقين النهائي لذلك كانت ابستومولوجيته ثورة على كل المفاهيم الدوغمائية والتي تظهر بشكل جلي في تطبيق المنهج الاستقرائي وهيمنته على التفكير العلمي وامتداده نحو العلوم الإنسانية والاجتماعية يتضح تماما في كلام . أوغست كونت . في محاولة التأسيس لعلم الاجتماع فيصف طريقته بقوله : " انه لدينا الآن فيزياء سماوية وفيزياء أرضية ، ميكانيكية أو كيميائية وفيزياء نباتية وحيوانية ، ومازلنا بحاجة إلى نوع آخر من الفيزياء هو الفيزياء الاجتماعية ، حتى يكتمل نسقنا المعرفي عن الطبيعة ، واعني

بالفيزياء الاجتماعية ذلك العلم الذي يتخذ من الظواهر الاجتماعية موضوعا للدراسة ، باعتبار هذه الظواهر من روح الظواهر العلمية والطبيعية والكيميائية والفيزيولوجية نفسها من حيث كونها موضوعا للقوانين الثابتة " ، ورغم النوايا الصادقة

لإعادة تنظيم المجتمع على اثر مخلفات الثورة الفرنسية إلا أن محاولة اوغست كونت ورفيقه جون ستيورات مل (1873.1806 م) في المماثلة التامة بين العلوم الامبريقية والعلوم الاجتماعية قد جعلت هذه الأخيرة في ذمة التاريخ حسب تقدير مؤرخي العلم .

ولان منطق العلم يقوم على تصحيحه الذاتي وتاريخية أخطائه فان السؤال حول مشروعية المنهج الاستقرائي بالشكل الذي اعتمده العلماء هو ضرورة لازمة لتجاوز العقبات والعوائق وهو ما قام به . بوبر . خاصة في كتابه . منطق الكشف العلمي . ليثبت في الأخير أنه لا يمكن التسوية بأي شكل من الأشكال لمشروعية الاستقراء وان هذا الأخير مجرد خرافة ويعبر بشكل واضح انه لا يطلب أي يقين في العلم وأننا أساسا لا يمكننا الحصول عليه (بوبر، منطق الكشف العلمي، دت).

ذلك هو موقف بوبر من مشكلة اليقين وسنعرض في النقاط القادمة لتفاصيل أكثر حول بنية هذا النقد ، ولنا أن نتساءل الآن عن رؤية بوبر لمنطق العلوم الاجتماعية فإذا كان المنهج الاستقرائي عائقا فما هو البديل وهل تتعدد المناهج وتختلف بين العلوم الامبريقية والعلوم الاجتماعية أم أن هناك مجالا خصبا للخوض فيه معا.

3. العلوم الاجتماعية و ابستيمولوجيا الخطأ:

يقول . بوبر . في كتابه . بحثا عن عالم أفضل . " .. مع كل خطوة إلى الأمام مع كل مشكلة نحلها ، فإننا نكتشف ليس فقط مشكلات جديدة بلا حل وإنما نكتشف أيضا أننا حين اعتقدنا أننا نقف على ارض صلبة آمنة كان كل شيء في الواقع مقلقا ومزعجا " (بوبر، بحثا عن عالم أفضل، 1999) تلخص هذه العبارات الإطار العام الذي أسست عليه العقلانية النقدية والتي ليست سوى أكثر من إعادة الاعتبار لعامل النقد إزاء كل ميراثنا المعرفي من أجل تصحيح طريقة فهمنا للواقع .

ولما كان مفهوم الخطأ مرفوضا في ابستيمولوجيات الكلاسيكية باعتبار أنه يشكل عيبا في البحث العلمي ونقصا في القدرات الفردية للعالم فانه على العكس من ذلك يعد المحور الأساسي للمنهج العلمي في فلسفة بوبر .



إننا نتعلم من الأخطاء تلك هي رسالة بوبر في كل مجالات المعرفة والحياة وحيث يكمن الخطأ نستطيع القول أن معارفنا حية ونضمن استمرارها وهنا تحديدًا تحضر البيولوجيا الداروينية كطريقة لتبرير تطور معارفنا ونموها لأن المعرفة لم تكن يوما معطى جاهز والعلم ليس أكثر من ظاهرة بيولوجية يمكن فهمه على أنه تطور معال لطريقة معرفة الفهم الإنساني الصحيح ، لذا إن اعتماد أي شكل من الأشكال القطعية إزاء أحكامنا وتناولنا للمعارف يعد قتلًا للعلم والمعرفة بشكل عام .

ويعتبر غياب النزعة النقدية العقلانية حسب بوبر أهم سبب أدى إلى تأخر العلوم الاجتماعية لذا حاول مناقشة هذه العوائق في أعمال مختلفة يعد أهمها كتابه بؤس الايدولوجيا والمجتمع المفتوح وأعداؤه والمناظرة الشهيرة بينه وبين . تيودور أدورنو Theodor Adorno (1903. 1969 م) والتي تعرف باسم الخصام الألماني في العلوم الاجتماعية 1961

لقد تطرق بوبر لقضايا المنهج في العلوم الاجتماعية في اتجاهين متكاملين بدأ بمنطق الكشف العلمي وجداله مع الاتجاه الطبيعي أو العلمي كما يسميه ليصل إلى صميم منطق العلوم الاجتماعية وذلك اثر جداله مع الايدولوجيا التاريخية و اليوتوبية وتعريه الغطاء السياسي الذي غطى على إمكانية فهم طبيعة هذه العلوم .

1.3 أزمة المفاهيم في المذهب الطبيعي :

يعلمنا الدرس الاستيمولوجي في تاريخ العلوم حقيقة أساسية وهي أن الفكر لا يتطور إلا بتحطيم المقدسات وتجاوز المخيال السائد ، وهو بالفعل ما قام به بوبر في تحليله للمفاهيم التي جاء بها المنهج الاستقرائي الذي عجز أمام استيعاب الانقلاب المفاهيمي الذي حققته الفيزياء المعاصرة وكان إيذانًا بانتهاء عصر وبداية عصر جديد .

وتعتبر مقولة الموضوعية واحدة من أهم المصطلحات التي استوجبت إعادة تحليلها ووضعها في قالبها السليم ، فبعد أن علمتنا التقاليد الكلاسيكية أن العلم لا يكون علما إلا إذا تحقق شرط الموضوعية فإن النتائج التي أسفرت عنها ثورة فيزياء الكم تصطدم

مباشرة مع هذا الحكم الصارم والمثال الشهير حول تجربة الشق المزدوج يضع شرط الموضوعية موضع التساؤل ، فهل يمكن عزل العالم عن موضوع بحثه ؟ تجيب فيزياء الكم بأن هذا الأمر أصبح صعب المنال وفي تجارب لويس دو بروي خير دليل على تحطم المنطق الثنائي القيمة وحسب . فيرنر هيوزنبرغ Werner Heisenberg (1901-1976 م) : " إن بناء أو نظريات العلم في أي مرحلة ليست سوى حلقة من السلسلة اللامتناهية لحلقات الحوار بين الإنسان والطبيعة ، ولم يعد من الممكن أن نتحدث ببساطة عن طبيعة بحد ذاتها ، علوم الطبيعة إذن تفترض سلفا وجود الإنسان ، وعلينا كما يقول نيلز بور. Niels Bohr (1885-1962) أن نأخذ في الحسبان أننا لسنا المشاهدين ، بل الممثلين في مسرح الحياة " (هيوزنبرغ، 1994).

تحولت إذن سيكولوجية الفصل بين الذات وموضوعها نحو العمل على اكتشاف آلية التفاعل بينهما ، وهي من النقاط المهمة التي تطرق إليها بوبر في مناقشة خطأ تناول الباحثين لمقولة الموضوعية حيث يقول في مناظرته حول العلوم الاجتماعية حيث أوضح بأنه لمن الخطأ تماما الافتراض ، بان موضوعية العلم تتعلق بموضوعية العالم والذي يلزم عنه أيضا خطأ الاعتقاد باستحواذ الباحث في علوم الطبيعة صفة الموضوعية على حساب الباحثين في العلوم الاجتماعية وذلك كون الباحث في علوم الطبيعة متحيز مثل غيره (بوبر، منطق العلوم الاجتماعية، 2008) ، ويؤكد أن الموضوعية تنتفي تماما أمام مطلب إلغاء الذات وإيديولوجيتها وحضورها الإنساني ، فما ينطبق على وجود أحكام قيمة عند الباحث في العلوم الاجتماعية هو نفسه موجود لدى الباحث في العلوم الطبيعية ولان " الموضوعية وغياب حكم القيمة هي قيم تتجاوز عمليا العالم المنعزل ولكن لان الموضوعية وغياب حكم القيمة هي في حد ذاتها قيم وبما أن غياب حكم القيمة هو في حد ذاته قيمة فان مطلب الغياب المطلق لحكم القيمة يعد مفارقة . " (بوبر، منطق العلوم الاجتماعية، 2008)

والموضوعية بالمعنى الايجابي البناء لا تتحقق إلا بوجود عنصر النقد القائم على السجل العقلاني والتعامل وفق الأخلاقيات العلمية بين العلماء والتعاون بين المؤسسات

العلمية وفي هذا دعوة إلى الحوار مثل المناظرات الفكرية ومنه نستنتج أن الموضوعية قضية اجتماعية .

إن العلم يبدأ من المشكلات تلك هي الصورة المنطقية الصحيحة التي ينبغي بناء المنهج العلمي وفقها وقد تحملت العلوم خطأ سوء الفهم الذي اقترفه دعاة المذهب الطبيعي حينما جعلوا من الخبرة الحسية المصدر الوحيد للمعرفة ودون ذلك غير مقبول لكن بوبر يرفض هذا المسار التعسفي فقد أكد مرارا أن المعرفة لا تكون إلا إذا كانت هناك مشكلة تثير الباحث وقد تتعدد مصادرها من الحدس أو الخيال أو الأفكار الميتافيزيقية فلا يهم مطلقا مصدر تلك المشكلات وإنما المهم هو العمل على بناء الفروض والسعي إلى دراستها ، وفيما يخص العلوم الاجتماعية فهي مثلها مثل باقي العلوم حسب بوبر فقد تكون مهمة أو تافهة خصبة أو عقيمة طردا مع مكانة المشاكل المعالجة والأمر لا يتوقف على المشاكل النظرية بل يتعداه إلى المشاكل العملية كمشكلة الفقر والامية والاضطهاد السياسي ، فكل هذه العبارات مثلت منطلقا عمليا نحو التنظير في العلوم الاجتماعية وهذا راجع إلى قيمة هذه المشكلات وهنا يكون المشكل إ هو دائما نقطة الانطلاق ، حيث تصبح الأولوية في البحث العلمي ليست الملاحظة إلى البسيطة بل الملاحظة في دلالتها النوعية ، أي بالضبط الملاحظة التي تخلق مشكلا (بوبر، منطق العلوم الاجتماعية، 2008) ومنهج البحث عن المشكلات يسمى في صورته المنطقية المنهج الفرضي الاستنباطي وهو المنهج الذي وجد فيه بوبر وغيره المجال الخصب الذي يتكيف مع نوعية البحث والطبيعة التطورية للمعرفة ويعتبر أينشتاين نموذجا محوريا على تقدير المنهج الفرضي الاستنباطي فقد كان يرى أن هذا المنهج أكثر المناهج ملائمة لأهداف الفيزياء وفيه يتم صياغة الفروض النظرية أولا ثم يأتي التحقق التجريبي ثانيا وان أسس تلك المبادئ والفروض النظرية هو الابتكارات الحرة كما يسميها لعقل العالم ومنه يأتي رفضه لمبدأ القوانين المطلقة لان المعرفة تتطور وتلك القوانين خاضعة للتغير في المستقبل (جريبانوف، 1990)، وهذا ما حققته بالفعل نظرية النسبية مع ميكانيكا نيوتن في تغييرها لمفهوم الزمان المطلق والمكان المطلق .

وانعكاسات النسبية لا تتوقف عند الحدود العلمية فقد تعلم منها بوبر طريقة المحاولة والخطأ في التعامل مع المسائل المعرفية ، فكون المعرفة نسبية ومستمرة التطور يضعنا أمام مطلب البحث عن أسباب نموها وليس ركودها وهنا يأتي الرفض الصريح لكل أشكال التعميم والتقنين المطلق ونصل إلى صميم المنهج البوبري القائم على معيار القابلية للتكذيب فحسب هذا المعيار إن كل نظرية لا تكون علمية إلا إذا كانت تقبل التنفيذ وصدقها يتوقف على مدى صمودها أمام اختبارات التكذيب وتبقى مجرد فرض مؤقت يعمل العالم على تطويره بالبحث عن الأفضل منه . وبفضل هذا المنهج تعود صياغة العلاقة بين النظرية والتجريب في العلوم تنطبق على العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية معا فالأولى تنطلق من الفروض النظرية وتبحث لها عن التفسيرات الرياضية والثانية تستنبط الفروض وتبحث لها عن التفسيرات المنطقية وهنا يؤكد لنا أن غياب التحليلات المنطقية للقضايا الإنسانية والاجتماعية قد أعاق تقدمها ، ولا أحد ينكر بعض الانجازات التي حققها المنهج التجريبي في بدايات ظهور العلوم الإنسانية والاجتماعية إلا أن هذا لم يكن كافيا وغياب المعيار الذي يحدد علمية أي نظرية وضع تلك المنجزات في تناقض مع بعضها مثل ما حدث مع مدرسة التحليل النفسي والمدرسة السلوكية رغم معاصرتهم لبعضهما البعض .

ولحد الآن كان الطرح يتعلق بالمسائل المنهجية التي نشأت مع الانجاه الطبيعي وننتقل الآن إلى اتجاه آخر اعتبره بوبر أخطر منهج على العلوم الاجتماعية منهجيا وأيديولوجيا .

2.3 العلوم الاجتماعية والمذهب التاريخاني :

" لذكرى أعداد لا تحصى رجالا ونساء وأطفالا ينتمون إلى سائر العقائد والأمم والأعراق ، سقطوا ضحايا الاعتقاد الفاشي ، أو الشيوعي ، بأن ثمة قوانين لا مهرب منها للقدر التاريخي "

كانت هذه هي العبارات التي افتتح بها كتاب "بؤس الايدولوجيا" والتي تصور المعاناة الشخصية التي عاشها بوبر أيام الحروب العالمية تلك التجربة التي خلص منها

الكثير وغيرت في نفسه طريقة استيعاب الأحداث وقراءة ما وراء السطور ، وليس هناك أصعب من اللحظة التي نقف فيها موقف شك إزاء أمور ومعتقدات دافعنا عنها كثيرا .

ويعتبر المذهب التاريخاني من الأفكار التي سيطرت كثيرا على المجتمعات البشرية في صور مختلفة واستخدمت في المناقشات المتصلة بمنهج العلوم الاجتماعية دون نظر نقدي ويعرفه بوبر بأنه : " طريقة في معالجة العلوم الاجتماعية تفرض أن التنبؤ التاريخي هو غايتها الرئيسية ، كما تفترض إمكان الوصول إلى هذه الغاية بالكشف عن "القوانين" أو "الاتجاهات أو" الأنماط" أو "الإيقاعات" التي يسير التطور التاريخي وفقا لها " (بوبر، بؤس الايديولوجيا، 1992)

يناقش بوبر مضامين هذا الاتجاه والمبررات المنهجية التي تجعل من العلوم الاجتماعية علوم تاريخية نظرية تسمح بالكشف عن حركات التغير التي تخضع لها المجتمعات وفق مراحل التطور التاريخي في منظومة شمولية كليانية وهو الأمر الغير مسموح به ضمن الابستمولوجية المفتوحة و أولى الاعتراضات على فكرة التنبؤ التاريخي وعلمية التاريخ عرضها بوبر وفق المسلمات التالية :

1. يتأثر التاريخ الإنساني في سيره تأثرا قويا بنمو المعرفة الإنسانية .
2. لا يمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية أن نتنبأ بكيفية نمو معارفنا العلمية .
3. إذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني .
4. وهذا معناه أننا يجب أن نرفض إمكان قيام تاريخ نظري ، أي إمكان قيام علم تاريخي اجتماعي يقابل علم الطبيعة النظري ولا يمكن أن تقوم نظرية علمية في التطور التاريخي تصلح أن تكون أساسا للتنبؤ التاريخي .
5. وإذن فقد أخطأ المذهب التاريخي في تصويره للغاية الأساسية التي يتوصل إليه بمناهجه ، وببيان ذلك يتداعى المذهب التاريخي (بوبر، بؤس الايديولوجيا، 1992) .

تكشف هذه الحجج المغالطات التي وقع فيها التاريخانيين والتي كانت نتيجة الفهم الخاطئ للمنهج الطبيعي ومقولاته وأيضا عدم تفريق المهندسين الاجتماعيين في الاتجاه التاريخاني بين مفهوم القانون والاتجاهات وبين التفسير العلمي و التأويلات انه خطأ هذا الاتجاه في اعتبار إمكانية التنبؤ ممكنة مثل التنبؤ في العلوم الطبيعية لان التنبؤ في هذه الأخيرة يتعلق بالظواهر التكرارية الموقوتة في حين إن حركات المجتمعات ليست موقوتة لذا يعتبر هذا الأمر سلبا للحريات الفردية والخيارات الشخصية .

وعليه في مقابل الهندسات اليوتوبية الكليانية يقترح بوبر الهندسات الجزئية لمعالجة المشكلات الاجتماعية كطريقة للترقيع و الإصلاح خطوة بخطوة تسمح للأفراد بممارسة حرياتهم دون أي ضغوطات أو مضايقات .

وتعتبر فلسفة . أفلاطون القرن الخامس قبل الميلاد . و. هيغل (1831.1770 م) و ماركس (1883.1818 م) أقوى فلسفات التاريخ التي أثرت بأفكارها على المنظومات الاجتماعية وتتجلى فيها بقوة مظاهر سلطة المذهب التاريخاني واعتبرهم أعداء المجتمع المفتوح .

ففي الفلسفة الأفلاطونية والتي يفترض بها أن تكون امتداد للأفكار الديمقراطية السقراطية تم تحديد مستقبل الأفراد ومكانتهم مسبقا باسم العدالة أو الجمهورية الفاضلة وهو الذي اعتبره بوبر دفاعا عن المجتمع المنغلق في شكل مخطط يدعم الدكتاتوريين المستنيرين أمثال سيركوس وتتجلى مظاهر هذا الانغلاق فيما يلي (بوفريس، 2009) :

1. حالة التراتبية التي يعيشها هذا المجتمع من ناحية الوظائف وغيرها .
- 2 . أن تتجنب الطبقة المهيمنة الصراعات حتى تبقى عند ما يسميه بوبر بالسوفوقراطية ، وهي مسألة تحتّم :
3. أن لا تشارك الطبقة المهيمنة في الحياة الاقتصادية .

4. شيوعية المحاربين .

5. إقامة نظام تربوي ، لا يترك أية فرصة لظهور ملكات النقد الحر ، بل من الضروري تشكيل وتكوين نخب من اجل القيام بهذه المهمة .

6. المحافظة بصرامة على النقاء العرقي للطبقة المهيمنة .

7. للمسؤولين الحق في مراقبة الحقيقة ، وممارسة الكذب .

8. إبقاء الدولة على التفاوتات ، والخضوع لنظام صارم جدا .

هذه الشروط هي أساس العدالة والتي تحفظ باستقرار الدولة على حساب الفرد وعليه اعتبر بوبر أفلاطون أول منظر للتوتاليتارية .

لكن رغم هذا النقد لفلسفة أفلاطون إلا أن المعنى الحقيقي لكلمة خطر التاريخانية جاء مع فلسفة التاريخ الهيجيلية والتي وجه إليها بوبر اشد الانتقادات وأقساها فلم تكن هذه الفلسفة سوى وسيلة للدفاع عن المصالح السياسية لملك بروسيا (بوبر، المجتمع المفتوح واعدائه ج2، 2015)

إن فلسفة هيغل العقلانية هي في الحقيقة إخضاع ما هو عقلائي للعقلانية فقد استغل هيغل تعاليم الديانة المسيحية ليحل مفهوم المطلق محل الواقع الحقيقي فعمل بذلك على تحويل الدين إلى فكر والفكر إلى واقع ، وهذه الفلسفة أسست لتسلب الفرد إمكانية التفكير أو التخطيط وتخضعه للنمط الجماعي الكلياني فهي إذا فلسفة لا تسعى فقط إلى التحكم في المجتمعات وإنما في إعادة إنشاءها ككل .

لقد نظر بوبر إلى فلسفة التاريخ الهيجيلية كمتهمة رئيسي في ظهور الفاشية والنازية وهذا بسبب الأفكار التي تضمنتها و الأيديولوجيات التي دعت إليها ، لقد رأى . هيغل . في العرقية الجرمانية العرق السامي وأرقى الشعوب وهناك فقط تنتهي الحرية وافر الحرب واعتبرها خيرة في حد ذاتها كما انه شرع الاستعمار ضد الشعوب ودعى إلى أن نهاية التاريخ ستكون حتما مع الشعب الجرمانى وقد ثبت عطب تنبؤاته .

ولان بوبر من دعاة التعايش والسلام فقد أدان بشدة هذه الفلسفة معتبرا إياها تمويمها ايدولوجيا باسم اللاهوت أوقع البشرية في مصائب كان من المحتمل تخطيها لولا مناهضة فقر الخيال لدى التاريخانيين .

ونصل الآن إلى آخر أنبياء التاريخانية ماركس . وللقاء بوبر بفلسفة ماركس وقع خاص فقد كان في يوم من الأيام أحد المنخرطين فيها حينما كان في عمره سبعة عشر سنة لكن بسبب واقعة راح ضحيتها الكثير من الشباب الشيوعي والاشتراكي انفصل بوبر تماما عن هذه الفلسفة . وقد أحييت في نفسه ربما لأول مرة بشكل جدي روح النقد وكانت منطلقا نحو بحثه عن شروط علمية أي نظرية يقول بوبر حول تلك الفترة : " لقد أدركت الخاصية الدوغمائية للاعتقاد الماركسي ، وغطرسها الفكرية المذهلة ، كان شيئا مرعبا ، أن تدعي نوعا من المعرفة يقتضي المجازفة بحياة الآخر من أجل عقيدة مقبولة بطريقة غير نقدية ، أو سعيا وراء حلم قد لا يمكنه التحقق . إن ذلك يستوجب بالأحرى اللوم عند مفكر ، أي شخص يمكنه القراءة والكتابة . لقد كان محزنا أن يتم اقتناصنا بهذا الشكل " (بوفريس، 2009) ، وتقدير بوبر لشخص ماركس واضح فهو يعتبره إنسانا منفتح عقليا وأراد بحق مساعدة المقهورين في العمل لكن تأثيره الاجتماعي جعل من نبيا يتنبأ بالمصير التاريخي للمجتمعات و هذا ما جعل بوبر يدينه كمسؤول عن التأثير المدمر للمنهج التاريخاني في الفكر داخل صفوف من أرادوا رفع شأن المجتمع المفتوح و إعلاء قيمته .

لقد رفض بوبر فكرة التعاقب الدوري للتاريخ والتي اعتمدها الكثير من الفلاسفة أفلاطون ميكيا فيلي فيكو شبنجلر توينبي باعتبار أن هذه الفكرة تغفل الآنية وللأسف يحضر مفهوم التعاقب في فلسفة ماركس في إطار وظيفة العلم التنبؤية حيث يقول في كتابه رأس المال " حينما يكشف مجتمع القانون الطبيعي الذي يحدد حركته (...) فلا يمكنه عندئذ تجاوز مراحل تطوره الطبيعية (...) ولكن بوسعه القيام بالكثير فيمكنه تقصير وقت آلام ولادته والتخفيف عنها " (بوبر، المجتمع المفتوح واعدائه ج2، 2015)، يحمل مطلب التغيير الذي نادى به ماركس روح العنف والثورة ولهذا راح ضحيته الكثير .

إن بوبر يسعى إلى بناء مجتمعات مفتوحة تسمح للديمقراطية وحرية التعبير أن تتجسد لذلك انتقد بشدة تلك الأفكار التي ترمي إلى تحقيق نبوءات زائفة باسم ربة الطبيعة أو الألوهية ، إن المجتمع ملك للأفراد وليس للتنبؤات التاريخية ومثل هذه الفلسفات يجب أن يتحطم الإطار الأسطوري الذي قامت عليه وتروج له .

4. خاتمة:

إن مشكلة تحديد المنهج الملائم للعلوم الاجتماعية متشابكة جدا كما أنضح ، وهنا تتبدى قيمة القراءة البوبرية التي حاولت معالجة هذه العوائق من خلال العملية التفكيكية التي جاءت بها لمنطق كل من العلوم الاجتماعية والعلوم الامبريقية وتضمنت تحليلا لعملية المعرفة وطرق التقدم العلمي وفي هذا السياق يبدو المنهج الجديد الذي استحدثته الابستمولوجيا البوبرية . القابلية للتكذيب . ، منهجا موحدًا يستوفي عدة اعتبارات وجزئيات تجتمع كلها لتشكيل الخصائص التي يتميز بها الإنسان في مختلف نشاطاته ، وهنا يلاحظ أن فلسفة العلوم مع الإضافة البوبرية قد فتحت المجال للانتقال بالتفكير في العلوم والمناهج من الاختزال المفاهيمي و الاستراتيجي نحو الشمولية والتعاقد في العلوم وهو الأمر الذي ينسجم مع متطلبات المجتمع المفتوح الذي كان بوبر قد دعى إليه في مسيرته ، وقد تعرض بوبر لاعتراضات خاصة من فلاسفة المدرسة الماركسية واليهيغيليين ، نقتبس بعض الردود التي طرحها تيودور ادورنو في مناظرة الخصام الألماني فقد اعتبر هذا الأخير أن العلوم لا ترتبط بمنهجية مثالية بقدر ما يخضع منهجها للموضوع ذاته وبالنسبة إليه أن الظواهر الاجتماعية هي من صنع الإنسان على خلاف النظرة الامبريقية السوسيولوجية التي تقدم المنهج على الموضوع وان الظواهر الاجتماعية ينبغي فهمها بفعل التفلسف ، وفي هذا الصدد ، تظهر التعددية في قضايا المنهج في العلوم الاجتماعية مثل المنهج التأويلي ، المنهج المسمى بالفهم ...إلخ ، بالإضافة إلى الابستمولوجيا التي تهتم بالمعرفة ككل ضمن ما يسمى بمنهج التعقيد أو

التي خرجت عم إطار المنهج نحو ضد المنهج ، وعلى أية حال تمثل جميع هذه الفلسفات والتوجهات الفكرية مزيجا من ديناميكية المعرفة ، هذه الأخيرة التي كما هو مستشرف مقبلة على مرحلة مختلفة نسبيا ، وذلك نظرا لاكتساح التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي حياة الإنسان شيئا فشيئا وهو ما يؤثر بالتأكيد على العديد من النشاطات ونمط الحياة ، لذلك ، على ما يبدو أن حدة قضايا المنهج ستزداد عمقا مرفقة مع الكثير من المشكلات .

وقد وجه ادورنو إلى بوبر اتهاماً آخر حيث يرى بأن منهجه الإصلاحى التدريجى ليس سوى دفاع عن أفكار الليبرالية الرأسمالية المعادية لأفكار ماركس فى أفكار وضعية تقتل روح المجتمع الإنسانى . إلا أن بوبر كرر مرارا أنه لا ينتهى للوضعى وان أفكاره حول وحدة المنهج واحترامه لليبيرالية يكون فقط للحفاظ عن الحرية والديمقراطية .

هذا الخطاب يعبر عن الوعى الثقافى الذى وصلت إليه المجتمعات الغربية بعد أن استفادت من دروس التاريخ ، لكن فى ذات الوقت وبإسقاط منظومة المفاهيم خاصة فيما يتعلق بالنظام الرأسمالى وتبعاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الواقع ، يتجلى حقيقة كم تحول هذا النظام بما يحمله من مصطلحات كالليبرالية والديمقراطية وحقوق الإنسان إلى نظام شمولى تحكمه قبضة السياسة العالمية المهيمنة ولنا فى المشهد الفلسطينى الحالى ابرز مثال ، وهنا نتساءل حول قيمة هذا البحث فى مجتمعاتنا وهل يمكن إرساء علوم إنسانية واجتماعية تنظم الفوضى التى نعيشها فى كل المجالات.

إن درس القرن العشرين الذى كتب عنه بوبر يجعل من الديمقراطية واحترام الآخر أول شرط لبناء المجتمع ، والديمقراطية بالمعنى البوبرى لا تعنى حكم الأغلبية بل تعنى القدرة على تغيير الفساد حتى ولو كان الحكم فى يد الأغلبية فهل نحن قادرون على ذلك ؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى نحن نعانى أزمة مع فهمنا للإرث الثقافى لحضارتنا بلغ البعض المناداة بالقطعية ، رغم أن الغرب وفى قمة نجاحهم المادى يظهرون الحاجة للوازع

الروحي للمجتمع وفي يقول هيزنبرغ : " إننا نريد للحياة الروحية أن تزدهر من جديد ، وان تستمر هنا في أوروبا نشوء الأفكار التي تتحكم في هيئة العالم (...) ونريد رغم الفوضى الخارجية أن ينمو شبابنا في الجو الروحي الغربي وان يغترفوا من مناهل القوة التي غدت قارتنا على امتداد أكثر من ألفي سنة (...) في كل الأحوال وقبل كل شيء يجب أن ننتصر للغرب " (هيزنبرغ، 1994)، وعليه يتعمق السؤال ليصبح كيف نستوعب يوتوبيا المفاهيم التي سطرت بين دفات الكتب وبين العملية التراكمية للمشهد السياسي و الثقافي لمحملة بالتناقضات بين التنظير و التطبيق الفعلي ؟

5. قائمة المراجع:

- د جريبانوف. (1990). *اينشتين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين* (المجلد ط2). (ثامر الصفا، المترجمون) دمشق: الاهالي.
- روني بوفريس. (2009). *العقلانية النقدية عند كارل بوبر*. (سعيد بوخليط، المترجمون) المغرب: افريقيا الشرق.
- فيرنر هيزنبرغ. (1994). *الطبيعة في الفيزياء المعاصرة* (المجلد ط2). (ادهم السمان، المترجمون) دمشق: طلاس.
- كارل بوبر. (2015). *المجتمع المفتوح واعدائه ج2* (المجلد ط1). (حسام نايل، المترجمون) القاهرة: التنوير.
- كارل بوبر. (1999). *بحثا عن عالم افضل* (المجلد دط). (احمد مستجير، المترجمون) القاهرة: منظمة الاسرة.
- كارل بوبر. (1992). *بؤس الايديولوجيا* (المجلد ط1). (عبد الحميد صبره، المترجمون) بيروت: الساقى.
- كارل بوبر. (دت 2008). *منطق العلوم الاجتماعية. مجلة مدارات فلسفية* .
- كارل بوبر. (دت). *منطق الكشف العلمي* (المجلد دط). (ماهر عبد القادر علي، المترجمون) بيروت: النهضة العربية.

لحضر مذبح. (2009). فكرة التفتح عند كارل بوبر (المجلد ط1). الجزائر: الاختلاف.
محمد قاسم. (1986). نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي (المجلد دط). الاسكندرية: دار
المعرفة الجامعية.